حكايات من القرآن

١

قابيل وهابيل

الدكتور

محمد عمر الحاجي

رسوم : إياد عيساوي

الطبعة الأولى
2006 - 1426

جميع الحقوق محفوظة
يمنع طبع أو إخراج هذا الكتاب أو أي جزء منه بأي شكل من أشكال الطباعة أو النسخ أو التصوير أو الترجمة أو التسجيل المرئي والمسموع أو الاختزان بالحاسبات الالكترونية وغيرها من الحقوق إلا بإذن مكتوب من دار المكتبي بدمشق .

دار المكتبي
للطباعة والنشر والتوزيع
www.almaktabi.com

سورية - دمشق - حلبوني - جادة ابن سينا
ص.ب ٣١٤٢٦ - هاتف : ٢٢٤٨٤٣٣ - فاكس : ٢٢٤٨٤٣٢
e-mail: almaktabi@mail.sy

إلى بِدايات القِصَّةِ...!!

مَرِضَ الجَدُّ (الشَّيخُ حُسينُ) مَرَضاً شَدِيداً ، وقَامَ أولادُهُ بِالواجِبِ على أَحسْنِ وَجْهٍ ، لكنَّ الأطبَّاءَ لم يَصِلوُا إلى نَتِيجةٍ مُرْضِيةٍ...

وذاتَ يومٍ ، وبعدَ أنْ أَجْرى الطَّبيبُ الكَبِيرُ (سَعِيدٌ) جَمِيعَ الفُحُوصاتِ اللاَّزمةِ للشَّيخِ.. هَمَسَ في أذُنهِ: عِنْدي لك نَصِيحةٌ يا أبا مَحْمودٍ...

فقالَ الشَّيخُ: وما هي يا صَدِيقي الطَّبِيب؟

قال الطّبِيبُ: بعد أن فَشِلَ العِلاجُ بالأدويةِ والأشِعَّة!! كان لابُدَّ من عِلاجٍ آخَرَ ، اسْتَخْدَمَهُ أَجْدَادُنا في الماضِي وهو الخُروجُ إلى الطَّبِيعةِ!!

سَألَ الشَّيْخُ: ولكنْ كيفَ ذلك؟

أجابَ الطَّبِيبُ: لابُدَّ يا أبا مَحْمودٍ مِنْ تَرْكِ هذه المَدِينةِ المُلَوَّثةِ ، والذَّهابِ إلى البَساتينِ والمَزَارعِ والجِبالِ وسَواحِلِ البِحارِ... ، وذلكَ لأنَّ الطَّبيعةَ الخَلاَّبةَ تجعلُ الإنسانَ أكثرَ صِحَّةً وعافيةً ، حيثُ الهَـواءُ العَلِيـلُ والأزهـارُ والـوُرودُ الجَمِيلـةُ ، وأَصْواتُ البَلابلِ والعَصَافير ، والمَنَاظِر الجَمِيلة الخَلاَّبة...

قالَ الشَّيخُ: ولكنْ كيفَ الذَّهابُ ، وصِحَّتي لاتَسْمُح لي بِمُغادرةِ الغُرفةِ يا صَدِيقي؟

قال الطَّبيبُ: ولكنِّي سمعتُ منكَ في إِحْدى زِياراتِكَ لِلْعيادةِ أنَّ أَحَدَ أولادِكَ يعملُ في منطقةِ السَّاحلِ قُربَ البحرِ الأبيضِ المتوسِّطِ...

أَجَلْ يا صَدِيقي ـ قال الشَّيخُ ـ سَأَقُومُ بِزِيارةٍ طَوِيلةٍ لولدي (عبدِ الله).. وأَخْرُجُ إلى المتَنَزَّهاتِ والسَّاحِلِ.

وفي ليلةِ الجُمُعةِ سافَر الشَّيخُ حُسينٌ مَعَ ولدِه أبي أنسٍ إلى منطقةِ اللاذقيَّةِ.. وكم كانتْ فرحةُ الشَّابِّ عبدِ الله وزَوْجَتِهِ والأولادِ (خالدٍ ، وبُشْرى ، وطارقٍ).. خاصَّةً عندما رأوا الشَّيخَ حُسَيْن.

تقدَّمتْ (بُشْرى) من جَدِّها وقالتْ: منذُ خمسِ سَنَواتٍ لم تأتِ لِزيارتنا في هَذهِ الأماكنِ الرَّائعةِ يا جَدِّي...

وسارَ الجَميعُ باتِّجاهِ البيتِ.. وفَرَّغَ أبو خالدٍ وزوجَتُه غُرْفةً ، ثم هَيَّؤُوها كَمكانٍ لنومِ واستراحةِ الشَّيخِ حُسَيْن...

وفي ليلةِ السَّبتِ غادرَ (أبو أنسٍ) اللاذقيةَ مُتَوَجِّهاً إلى دِمشقَ ، وذلك بسببِ ارتباطهِ بأمورِ الدِّراسةِ والتَّدْريسِ...

وبعدَ الإفْطارِ الصَّباحيِّ ، أرادَ الأولادُ أنْ يَصْطَحِبُوا جَدَّهم إلى قُرْبِ البحرِ.. وبالفِعْلِ وَصَلَ

الجَدُّ والأَحْفادُ إلى ساحِلِ البحرِ ، ثُمَّ جَلَسُوا يَسْتَمْتِعُون بتلكَ المَنَاظِرِ الخَلاَّبةِ.. بينما كانَ (خالدٌ) مُلْتصِقاً بِجَدِّه .. يَسْتَفْسِرُ عن بعضِ الأمورِ .. ثمَّ اقْتَرَحُوا أن يحكيَ لهم في كُلِّ ليلةٍ حِكايةً...

وافقَ الجَدُّ شَرِيطةَ أن لا يكونَ ذلك داخلَ غُرَفِ البيتِ ، بل يكونُ في أَحْضانِ الطَّبيعةِ..

وفي صَبيحةِ اليومِ الثَّاني اجْتمعَ أفرادُ العائلةِ حَولَ الجَدِّ تَحْتَ أشجارِ الحَدِيقةِ ، وهُمْ في حالةِ سُرُورٍ وسَعادةٍ.. وراحَ الجَدُّ يحكي حِكايتَه الأُولى:

...أنا.. لا أعلمُ إلا حِكاياتٍ من القرآنِ الكريم..

قالَ (أبو خالدٍ): وما أجملَ الحِكاياتِ من القُرآنِ ، فهلاّ أَسْمَعْتَنا شَيْئاً من ذلك!!

وتابعَ (الشَّيخُ حُسينٌ) قائلاً:

في بِداياتِ الخَلِيقةِ: أَمَرَ اللهُ آدمَ عليه السَّلامُ وزَوْجَتَه حَوَّاءَ بأن لا يَقْربا شَجَرةً مُعَيَّنةً.. ولكنَّهما نَسِيا، وأَكَلا مِنَ الشَّجرةِ، وكان ذلكَ مَعْصِيةً لله سُبْحانه وتعالى، لذلك أَخْرَجَهما اللهُ من الجَنَّة، وأَهْبَطَهما على الأرضِ!!

وبعدَ فَتْرةٍ وَجِيزةٍ حَمَلتْ (حَوَّاءُ) في بَطْنِها أَجِنَّةً.. وعانتْ ما عانتْ، لكنْ لمَّا وَضَعَتِ الحَمْلَ نسيتْ كُلَّ تَعَبِها.. وكان ولداً ذَكَراً وهو (قابيل).. وأُخْتاً أُنْثى جَميلةً..

وبعدَ فَتْرةٍ ثانيةٍ، وضعتْ (حَوَاءُ): ذَكَراً هو (هابيل) مع أُختٍ له..

وعاشتِ الأُسرةُ عِيشةً هَنِيةً.. حيثُ عَمِلَ (قابيلُ) في أُمورِ الزِّراعة، بينما عَمِلَ (هابيلُ) في مَجَالاتِ تَرْبيةِ الحَيَواناتِ والرَّعْي.. ونحو ذلك..

فَسَأَلَ (خالدٌ): وماذا حَدَثَ للأُسْرَةِ الأُولى يا جَدِّي؟!

ابْتَسَمَ الجَدُّ ، وقالَ: لو أنَّكَ صَبَرْتَ قليلاً لجاءكَ الجَوابُ!

تابَعَ الشَّيخُ أبو محمدٍ حِكايَتَهُ قائِلاً:

إنَّه الامْتِحانُ العَصِيبُ!!

وذاتَ يومٍ أَوْحَى اللهُ إلى نَبِيِّه آدمَ عليه السَّلامُ بأنْ يُزَوِّجَ (قابيلَ) من أُختِ (هابيلَ) ، وأن يُزَوِّجَ (هابيلَ) من أُخْتِ (قَابِيلَ) ، وذلك بهدفِ ازديادِ النَّسْلِ.

وجَمَعَ آدمُ أولادَه ، وبلَّغهم أَمْرَ اللهِ سُبْحانه وتعالى..

لكنَّ (قابيلَ) رَفَضَ ذلك بِحُجَّةِ أنَّ أُخْتَه أجملُ من أُخْتِ (هَابِيلَ)!!

وعِنْدَها تَحَرَّكَتْ بَواعِثُ الحَسَدِ والحِقْدِ

والبُغضِ في صَدْرِ (قابيلَ) نحو أَخِيه ، لذلك راحَ يُضايِقُهِ ويُؤْذِيه باللِّسانِ واليدِ!!

وقفَ (طارقٌ) وقال: ولكنْ كيفَ يَحْسُدُ الأخُ أخاه..؟ وكيف يُؤْذِيه؟.. إنِّني ما إن أُغادرَ البيتَ حتَّى أشتاقَ لأختي (بُشْرى) وأخي (خالد).. ولا أُصدِّقُ منى سأعودُ لأراهما وألعبَ مَعَهُما!

قال الجَدُّ: نعمْ يا طارقُ! ولكنَّ الشَّيطانَ عندما يُوَسْوِسُ للإنسانِ ، ويُصَدِّقه المسكينُ ، فإنَّه قد يفعَلُ أيَّ أمرٍ ، حتَّى لو كان قَتْلَ أَخِيهِ!!

قَتْل أَخِيه ـ صاحَتْ (بُشْرى) ـ.. وهل هو إنسانٌ أم حَيَوانٌ؟!

تابعَ الجَدُّ الحِكايةَ ـ بعد أن سَحَبَ نَفَساً طويلاً من الهَواءِ العَلِيل ـ:

وَهَكذا حاولَ آدمُ عليه السَّلامُ مرَّةً تِلْو مَرَّةٍ أن

يُصْلِحَ الأمورَ بين (قابيلَ) وأخيه (هابيلَ) ، لكنَّه لم يَسْتَطِعْ إلى ذلك سَبِيلاً!

ومَرَّتِ الأيَّامُ.. والحِقْدُ يَزْدادُ في صَدْرِ (قابيلَ) على أخِيه (هابيلَ) ، حتَّى إذا ما وَجَدَ آدمُ نوعاً من الحَلِّ ، اسْتَدْعى أولاده وبَيَّن لهم اقْتِراحَهُ التَّالي:

أنْ يتقدَّمَ (قابيلُ) بِقرْبانٍ من الزَّرْعِ والثِّمارِ الجَيِّدة ، في سَبيلِ اللهِ تعالى ، وأن يتقدَّمَ (هابيلُ) بِقُرْبانٍ مِنَ المَواشي التي يَمْتَلِكها ، ثم ينتظرونَ النَّتِيجةَ ، فهل تَدْرُونَ يا أحبابي ماذا حَدَث؟

مِمَّن يَتَقَبَّلُ اللهُ تعالى؟

ووافقَ(قابيلُ) و(هابيلُ) على الفِكْرةِ.

فانْطَلقَ (قابيلُ) إلى أَرْضِه ، فانْتَقَى أَسْوأَ ما يكونُ مِنْ زُرُوعِه.. وقَدَّمها قُرْباناً!!

بَيْنما ذَهَبَ (هابيلُ) إلى حَظَائرِ المَوَاشي

فانتَقَىٰ واحِدةً من أَفْضلِ مَوَاشيه ، فَذَبَحَها ، وقَرَّبها قُرْباناً إلى اللهِ ، وراح يَدْعُو أن يَتَقَبَّلَ اللهُ منه...

سَأَلَ (خالدٌ): ولكنْ كيفَ سَيَعْرِفانِ القُرْبانَ المَقْبُولَ مِنَ القُرْبانِ غيرِ المَقْبُولِ؟

تابَعَ الجَدُّ الشَّيخُ الحِكايةَ:

وعِنْدَما أَشْرَقَتِ الشمْسُ عَلَى الوُجُودِ ، التفتَ آدمُ عليه السَّلامُ ، فَرَأى الزُّرُوعَ التي قَدَّمها (قابيلُ) قد ذَبُلَتْ وَيَبِسَتْ ، بينما القُرْبانُ الذي قَدَّمه (هابيلُ) لاأثرَ له أبداً.

إذاً قالتْ (بَشْرى): تَقَبَّل اللهُ من (هابيلَ) ولم يَتَقَبَّلْ من (قابيلَ).

قال الجَدُّ: أحسنتِ يا بُشْرى... وعندها أُصِيبَ (قابيلُ) بنوعٍ من الجُنُونِ!!

وراحَ يَتَساءلُ: لماذا قَبِلَ اللهُ قُرْبانَ هابيلَ ، ولم يَتَقَبَّل قُرْباني؟!

وانطلقَ (قابيلُ) إلى حيثُ يُوجَدُ (هابيل).. ، فلمَّا رآه (هابيلُ) علم أنَّه جاء يُرِيدُ شَرّاً ما!

فلاطَفَهُ وتكلَّم مَعَهُ كلاماً مَعْسُولاً: يا أخي! لا تغضبْ لذلك ، فاللهُ لا يتقبَّلُ قُرْباناً سَيِّئاً ، واللهُ لا يتقبَّلُ إلا من المُتَّقِين.

لكنْ ماذا يُفِيد هذا الكلامُ.. و(قابيلُ) قد غَضِبَ من أخيه.. واحْمَرَّتْ عَيْناهُ منهُ، وقال بصوتٍ مُرْتَفِعٍ: يا هابيلُ لأقتلنَّكَ ولو بَعْدَ حِيْنٍ!!

فقالَ (هابيلُ): لستُ أنا السَّبَب في خَسارتِكَ وخُذْلانِكَ ، إنَّما نَفْسُك الأمَّارةُ بالسُّوء ، فلماذا لم تُقَدِّمْ قُرْباناً من النَّوع الجَيِّد الحَسَن؟ ولماذا لم تَعِشْ حياةَ التُّقَى والصَّلاحِ؟

وكأن (قابيلَ) لم يَعُدْ يَسْمَعُ أيَّ كلام ، وذلك

بسببِ دَوافِعِ الشَّرِ والحِقْدِ والحَسَدِ تُجاهَ (هابيلَ) ، ودارتِ الفِكْرَةُ في رأسِه.. ثم خَطَرتْ له خَاطرةٌ ، وهي: لابُدَّ أن أَحْمِلَ صَخْرةً وأُلْقِيها على أَخِي ، فَيُقْتَلُ.. ويَمُوتُ!!

ويُسْتَشْهَدُ (هابيلُ)!!

قال (أبو خالدٍ): لعلَّ ذلك كُلَّه كان بسببِ عِصْيانِ (قابيلَ) لأوامرِ الله ، وأوامرِ أبيه آدمَ!؟

قال الشَّيخُ: أحسنتَ يا أبا خالدٍ ، وكيف يُوَفَّقُ من يَعْصِي اللهِ ويَعْصِي أوامرَ والديه؟! أَلاَ تَعْلَمُونَ أن رِضا الله مُعَلَّق برضا الوالدين؟!

وذاتَ ليلةٍ قَدِمَ (قابيلُ) إلى المكانِ الذي ينامُ فيه (هابيلُ) ، ... ولما تأكَّد أنَّه نائِمٌ ، حَمَلَ حَجَراً كبيراً ، ثم هَوَى به على رأسِ أخيه ، فسالتْ دماءُ (هابيلَ) البريء؟!!

صاحَ الأولادُ: لا بارِكَ اللهُ بكَ يا قابيلُ! كيف استطاعَتْ يَداكَ أن تُلْقِيا الحَجَرَ على رأسِ أخيك؟!

وقالتْ (أمُّ خالدٍ): يالهولِ تلك الجَريمةِ!!

تابع الجَدُّ الحِكايةَ:

أجلْ.. مات (هابيلُ) ليكونَ أوَّلَ شَهِيدٍ على الأرضِ.. وليكونَ (قابيلُ) أوَّل مُجْرِمٍ على الأرضِ..

ولكن يا جَدِّي ـ تسألُ (بُشْرى) ـ ماذا حَدَثَ بعد قَتْلِ (هَابِيلَ)؟

قال الشَّيخُ: حَارَ (قابيلُ) ماذا يَفْعَلُ بجُثَّةِ أخيه (هَابِيلَ)؟.. ، فَحَمَلَهُ على ظَهْرِه ، وسار نادِماً مَهْمُوماً.. ، وفَجْأةً رأى غُراباً يحملُ غُراباً آخرَ..

فلمَّا وَصَلَ إلى جِوارِه نَزَلَ على الأرضِ ، ثم راحَ يَحْفِرُ الأرضِ بِمَخالِبه ومِنْقاره ، حتَّى حَفَرَ حُفْرةً صَغِيرةً ، فَوَضَعَ الغُرابَ الآخرَ فيها ، ثم أهالَ التُّرابَ عليه ، وطارَ في الجَوِّ...

وعِنْدَئذٍ انتبهَ (قابيلُ) وقالَ في نَفْسِه: لماذا لا أَفعَلُ كما فَعَلَ هذا الغُرابُ؟

وراحَ يَحْفِرُ في الأرضِ ، .. حتَّى إذا ما أصبحتِ الحُفْرةُ كَبيرةً ، وَضَعَ أخاه (هابيلَ) فيها ، ثُمَّ أهالَ عليه التُّرابَ والحِجارةَ...

و.. راحَ (أبو خالدٍ) يُرتِّلُ قَوْلَ اللهِ تعالى:

﴿ ۞ وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ ۖ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ ۖ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ ۚ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾ فَبَعَثَ ٱللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِى ٱلْأَرْضِ لِيُرِيَهُۥ كَيْفَ يُوَٰرِى سَوْءَةَ أَخِيهِ ۚ قَالَ يَٰوَيْلَتَىٰٓ أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ

هَـٰذَا ٱلْغُرَابِ فَأُوَارِىَ سَوْءَةَ أَخِى ۖ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلنَّـٰدِمِينَ ﴾.

[المائدة: ٢٧ ـ ٣١].

وهَتَفَ الأولادُ: إذاً لابُدَّ أن نَسْتَمِعَ إلى حِكايةٍ منك يا جَدِّي.. ، إنَّها فُرْصةٌ لا تُعَوَّضُ.. فأنتَ بَيْننا.. ونَحْنُ سُعَداءُ بذلكَ...

وطَلَبتْ (أمُّ خالدٍ) من الأولادِ الذَّهابَ إلى غُرْفةِ النَّـومِ.. ووَعَدَهُمُ الجَـدُّ بأنْ يحكـيَ لهـمْ في اليومِ الثَّـاني حِكايةً أُخْرَى...

والحَمْدُ للهِ رَبِّ العَالَمِينَ